

تفسير ابن كثير

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان كما قال الإمام أحمد حدثنا بهز وعفان أخبرنا همام حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذا بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعته يقول : [إن ابن آدم يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم] ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكفار والمنافقون فيقول : { الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين } الآية أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث قتادة به وقوله : { الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا } أي يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله ويبغونها عوجا { أي ويريدون أن يكون طريقهم عوجا غير معتدلة } وهم بالآخرة هم كافرون { أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها } أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء { أي بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة } إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار .

وفي الصحيحين [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته] ولهذا قال تعالى : { يضاعف لهم العذاب } الآية أي يضاعف عليهم العذاب وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم بل كانوا صما عن سماع الحق عميا عن اتباعه كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار كقوله : { وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير } وقال تعالى : { الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب } الآية ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه وعلى كل نهي ارتكبوه ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة وقوله : { أولئك الذين خسروا أنفسهم وذل عنهم ما كانوا يفترون } أي خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا نارا حامية فهم معذبون فيها لا يفترون عنهم من عذابها طرفة عين كما قال تعالى : { كلما خبت زدناهم سعيرا } { وذل عنهم } أي ذهب عنهم { ما كانوا يفترون } من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئا بل ضررتهم كل الضرر كما قال تعالى : { وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين } .

وقال تعالى : { واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم
ويكونون عليهم ضدا } وقال الخليل لقومه { إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في
الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم
من ناصرين } وقوله : { إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم
الأسباب } إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرتهم ودمارهم ولهذا قال : { لا جرم أنهم في
الآخرة هم الأخسرون } يخبر تعالى عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة لأنهم
استبدلوا الدرجات عن الدرجات واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آف وعن شرب الرحيق المختوم
بسموم وحميم وظل من يحموم وعن الحور العين بطعام من غسلين وعن القصور العالية بالهاوية
وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون